أدباء... ومواقف

بقلم رجاء النقاش

تحية من سفارة اسرائيل في كوبنهاغن

بعد ان انفجرت القنبلة « البلاستيك » ومعها خمسة كيلو جرامات من الديناميت في عربة الكاتب الفنان المناضل غسان كنفاني فمزقت جسده وقتلته ، وجد المحققون الى جانب السيارة المنسوفة ورقة تقول :

« مع تحيات سفارة اسرائيل في كوبنهاجن » .

وهذه الورقة بالطبع يمكن ان تكون ورقة مزيفة للتضليل وابعاد الانظار عن المصدر الحقيقي للجريمة . ومع ذلك فهذه الورقة لها معناها المحدد ، وهي تكشف عن جانب اساسي من جوانب شخصية غسان كنفاني ، كما تكشف عن جانب هام من جوانب نضاله السياسي ، ولا شك ان القريبين من غسان يعرفون هذه الحقيقة وغيرها ، ولكن لا شك ايضا ان من الضروري ان يعرف الرأي العام الثقافي في وطننا العربي ملامح الصورة الكاملة او القريبة من الاكتمال لهذا الفتى الفارس الشجاع : غسان كنفاني ... بعد ان عاش غسان من اجلنا حياة عنيفة ومات ايضا موتا عنيفا .

فماذا تعني هذه الورقة التي تحمل « تحيات سفارة اسرائيل في كوبنهاغن » الى جسد الشهيد غسان كنفاني ؟ ... ان الورقة تشير الى « كوبنهاغن » عاصمة الدانيمرك » ، وغسان كنفاني متزوج من فتاة دانمركية هي « آني » ، وهذه الفتاة الرقيقة المخلصة كان لها دور كبير في حياة غسان وفي نضاله السياسي ونشاطه الثوري .

واذكر انني سألت غسان كنفاني مرة : « كيف تعرفت على « آني » وكيف تزوجتها ؟ » فاجابني بانه التقى بها ذات مرة وهي تقوم بزيارة للبلاد العربية لاعداد بحث عن « اللاجئين الفلسطينيين » ... وقد تعرفت « آني » على غسان باعتباره كاتبا فلسطينيا يمكن ان يساعدها في اعداد البحث ، وانتهت هذه العلاقة التي بدأت بدراسة لمأساة اللاجئين الى حب وتفاهم عاطفي بين « آني » و « غسان » ، وانتهى الحب بدوره الى الزواج .

ولكن « آني » لم تتوقف عن النشاط بعد الزواج ، بل استمرت في عملها وتوسعت فيه ، فمن خلال « غسان » آمنت « آني » كل الايمان بقضية فلسطين ، وبدأت تعمل بكل جهد على مساعدة الحركة الثورية الفلسطينية ، واعتمد عليها غسان في توثيق صلاته بكثير من الاوساط الاوروبية ، بل واعتمد على مساعداتها له في الحصول على كثير من الوثائق المتصلة بواقع العرب في الارض المحتلة ، هؤلاء الذين كانوا يبلغون حوالي ربع مليون مواطن عربي داخل اسرائيل قبل سنة ١٩٦٧ ، والذين اصبحوا الان حوالي مليون ونصف مليون مواطن بعد ان وقعت الضفة الغربية لنهر الاردن تحت سيطرة الاحتلال الاسرائيلي .

ولذلك كله فان الورقة التي عثر عليها المحققون الى جانب جثته الممزقة بعد انفجار القنبلة والديناميت ... هذه الورقة تعني اشارة واضحة للدور الذي لعبته هذه السيدة الدانيمركية « آني » زوجة غسان كنفاني ، وتعني ايضا اشارة الى الدور الذي لعبه غسان من خلال هذه الزوجة المثقفة الوفية لزوجها ، والوفية لشعب فلسطين الذي آمنت به وبقضيته .

ولقد فكرت وانا اكتب هذا المقال الا اشير من قريب او من بعيد الى « آني » ودورها في حياة غسان كنفاني ، خوفا عليها وعلى مستقبل اولادها بعد ان فقدت زوجها ، وفقدناه جميعا معها . ولكنني اعرف - من خلال مناقشات قديمة مع غسان كنفاني - ان دور زوجته معروف للاسرائيليين وانها تعرضت لكثير من الضغوط ، ولكنها صمدت لهذه الضغوط جميعا ، وواصلت رسالتها الى جانب زوجها والى جانب القضية التي عاش من اجلها ومات في سبيلها هذا الزوج الشهيد .

وقصة « آني » في حياة غسان كنفاني تثبت حقيقة واضحة في شخصية غسان ، وهي انه كان ينظر الى امور الدنيا من خلال منظار واحد هو منظار القضية الفلسطينية ، وقد يرى البعض ان هذا الكلام مبالغة تمليها علينا الظروف العاطفية التي تحيط بنا الان ونحن نودع غسان شهيدا في معركة الوطن العربي بعد حياة قصيرة حافلة بالنضال والكفاح ، ولكن الحقيقة التي لا شك فيها ، والتي لا يستطيع ان ينكرها حتى اعداء غسان انفسهم هو انه كان مشغولا بالقضية الفلسطينية الى ابعد الحدود ، وان هذه القضية قد استولت حتى على حياته الشخصية ، ومن خلالها عرف الحب والزواج .

وغسان لم يكن واحدا من هؤلاء الذين يبحثون عن الحياة اليسيرة البعيدة عن المشاكل ، اكتفاء منه بان يكتب كتابا او مقالا او بحثا او دراسة او قصة او مسرحية يتناول فيها شيئا عن فلسطين او يشير الى مأساتها ومعاركها العديدة .. كان غسان يعيش القضية بصورة مستمرة ومتصلة ، وحتى زواجه وحبه ولدا من خلال مأساة شعبه ومن خلال تطلعه الى ان يلعب دورا في هذه المأساة .

على ان دور « آني » في حياة غسان كنفاني يثبت من ناحية اخرى ان في اوروبا جيلا جديدا من الشباب والفتيات ، لا يستسلم للدعاية

الاسرائيلية الواسعة بل يرفض هذه الدعاية ، ويشعر بعدالة القضية العربية الفلسطينية ويدافع عنها بايمان واخلاص ، و « آني » هي نموذج من هذه النماذج الاوروبية الجديدة المؤمنة بالقضية الفلسطينية ... انها واحدة من ابناء الجيل الاوروبي الجديد الذي يرفض كل عمليات التعبئة الاعلامية الاسرائيلية ضد العرب في اوروبا .

وغسان كنفاني لم يكن شابا زاهدا في الحياة ، وانما كان على العكس شابا متفتحا محبا للحياة والمرح ، ولم يكن غسان ابدا مثالا لهؤلاء المناضلين المتجهمين القانمين الذين يشعرون بانهم يحملون هم الدنيا كلها.. على اكتافهم... بل كان كثيرا ما يبدو فتى من فتيان العصر واثقا بنفسه سعيدا بها ، يريد ان يعيش وان يستمتع بحياته ، ولكن وراء هذه البساطة وهذا التفتح للحياة كان غسان يخفي شخصية اخرى فيها قلب مثقل بالهموم الحقيقية ، قلب عنيد مناضل يتطلع الى مسؤوليات اكبر بكثير من سن غسان ، ، وربما اكبر من امكانياته الصحية وظروفه المختلفة .

كان غسان مريضا بالسكر منذ صباه الاول ، وقد صاحبه هذا المرض مصاحبة طويلة لم تفارقه ابدا حتى فارق الحياة ، وكان غسان مضطرا الى ان يعطي لنفسه يوميا حقنة « انسولين » بلا مساعدة احد، حتى تزوج « آني » فكانت تقوم بالنسبة له بدور الممرضة اذا كانت معه ، اما اذا كان على سفر او كانت هي على سفر ، فقد كان عليه ان يقوم بدور الطبيب بالنسبة لنفسه ، وكان يتقبل هذا الوضع المؤلم بلا ضجر ولا شكوى ، كانه بطل من ابطال قصص همنجواي الذين تعودوا على مواجهة الالم بشجاعة ورضا وصبر كبير .

ولقد كان على غسان دائما ان يتحمل نوبات الاغماء العنيفة التي كانت تهاجمه بسبب مرض السكر ، والتي كانت في بعض الاحيان توشك ان تودي به ، واذكر اننا سنة ١٩٦٨ ، في المؤتمر الاول لاتحاد الصحفيين العرب بالقاهرة ، ظننا انه سوف يموت عندما تعرض للاغماء اكثر من مرة ، واحاط به الاطباء وانقذوه فعاد الى المناقشات العنيفة والنشاط الحاد مرة اخرى بلا تردد او هدوء .

ولد غسان كنفاني في يافا في ابريل « نيسان » ١٩٣٦ ، وخرج من يافا مع اسرته سنة ١٩٤٨ بعد قيام دولة اسرائيل ، وبعد رحلة قاسية وصفها لنا في كثير من قصصه ، وصل مع اسرته الى دمشق واكمل تعليمه بها ، ثم عمل مدرسا في دمشق ، وسافر بعد ذلك الى الكويت ليعمل هناك فترة من الزمن ، ثم بدأ خط حياته في التحرر النهائي سنة ١٩٥٩ وكان عمره آنذاك ثلاثة وعشرين عاما .

رفض غسان ذلك « الانقسام الشخصي » الذي استسلم له الكثيرون من الشبان العرب في جيله ، فلسطينيين وغير فلسطينيين ، فقد كان الكثيرون يهتمون بتكوين حياة هادئة وعادية ومستقرة ، ثم يقومون بعد ذلك ببعض واجبات النضال في « بعض » الاوقات واللحظات ، دون ان يضحوا بالحياة الهادئة التي وصلوا اليها ... وكانت المشاركة او بعض القصائد والقصص او بعض التبرعات المالية او المشاركات المتفرقة في العمل السياسي . ولكن غسان اختار منذ سنة ١٩٥٩ ان « يوحد » بين عمله ونضاله ، بين حياته ورسالته ، بين ما يكتبه وما يعيشه ، بين قضية شعبه ومصادر رزقه المختلفة . وكان باستطاعة غسان ، وهو صاحب الموهبة الكبيرة الخصبة ، ان يحصل على اوسع الفرص ليعيش حياة هانئة سعيدة ... ثم يعطي للنضال بعد ذلك جزءا من وقته او ماله . ولكنه اختار شيئا آخر هو ان يعيش من عمله في سبيل قضيته .

وكان عمل غسان في سبيل قضيته يتم من خلال ثلاثة مجالات :

المجال الاول هو الصحافة .

والمجال الثاني هو العمل السياسي المباشر .

والمجال الثالث هو الانتاج الادبي والفكري .

ولقد اهتم غسان اهتماما كبيرا بالعمل الصحفي ، وكان رايه دائما ان العمل الصحفي « سلاح يومي من اسلحة المعركة » فهو يريد ان يتصل بالراي العام العربي ويؤثر فيه تأثيرا مباشرا بل وسريعا الى ابعد الحدود ، ولن يتم ذلك الا عن طريق الصحافة لا عن طريق الانعزال والبعد عن الحياة العامة لتقديم بحوث ودراسات ، او تقديم انتاج ادبي يتناول « المأساة الفلسطينية » تناول الذين يتفرجون عليها ويدورون حولها من بعيد دون ان تكون ايديهم في النار الحقيقية للتجربة الاليمة وقد نجح غسان في عمله الصحفي نجاحا واضحا ، وتهافتت عليه المؤسسات الصحفية الكبرى في بيروت ، وعمل بالفعل في عدد من الصحف المعروفة مثل جريدة « المحرر » التي كان رئيسا لتحريرها ، وجريدة « الانوار » التي كان يكتب افتتاحيتها اليومية ، وكان في الوقت نفسه يرأس تحرير ملحقها الاسبوعي ، ولكن غسان لم يواصل العمل في المؤسسات الصحفية الكبرى ، لانه كان دائما يحن الى العمل في الصحف السياسية « الحزبية » ذات الخط السياسي الواضح المحدد حتى لو كانت هذه الصحف ناشئة او ضعيفة التوزيع او غير معروفة على نطاق واسع لدى الجماهير . لقد كان غسان بطبيعته بعيدا كل البعد عن « الفتور » و « الميوعة » ، وعلى العكس كان حادا عنيفا يميل الى التطرف في آرائه ومواقفه حتى لو قاده هذا التطرف الى الخطأ ، ذلك لانه كان يكره التردد والقلق ، ويرى ان السير في طريق محدد خير من وقوف الانسان في مفترق الطرق فريسة للحيرة والشكوك .

ومن هنا انتقل غسان بارادته واختياره الى الصحف السياسية الحزبية ليعمل فيها بجهد بارز ، فتولى مسئولية مجلة « الحرية » اللبنانية التي كانت تصدر عن حركة القوميين العرب ، ثم تولى بعد ذلك رئاسة تحرير مجلة « الهدف » التي تنطق بلسان «الجبهة الشعبية»

واود ان اقف لحظة هنا لاشير الى ان اختيار غسان للعمل الصحفي يشبه الى حد كبير اختيار كثير من الادباء العالميين لهذا العمل نفسه في ايام المعارك الكبيرة ، فالصحافة هي اقرب وسائل التعبير الى واقع المعارك الحية . وقد اختار همنجواي ان يعمل مراسلا صحفيا في الحرب الاسبانية الاهلية سنة ١٩٣٦ ، وعمل مراسلا صحفيا قبل ذلك في الحرب العالمية الاولى . ونجد « شولوخوف » الاديب الروسي يعمل مراسلا صحفيا في الجبهة الروسية خلال الحرب العالمية الثانية . وما اكثر الاسماء الادبية العالمية الاخرى التي اختارت العمل بالصحافة خلال المعارك الكبرى . ولا شك ان اهتمام غسان بالصحافة ، رغم انه في الاصل اديب وفنان ، كان ينطلق من النقطة نفسها ... نقطة الاقتراب من ارض المعركة الحية عن طريق الصحافة .

على ان اختيار غسان الصحفي يكشف لنا عن اختياره السياسي ايضا . فقد انضم غسان منذ بداية حياته السياسية الى « حركة القوميين العرب » ، وليس المجال هنا مجال دراسة وتقييم لهذه الحركة ولكن اهم ما يلفت النظر في هذه الحركة هو ما فيها تطرف وعنف في مراحلها الثلاث المعروفة : « الرومانسية والناصرية والماركسية ».ولعل هذا الطابع المتطرف هو الذي جذب غسان الى هذه الحركة لانها تلائم ما في شخصيته من حدة وانفعال وعنف . لقد كانت حركة القوميين العرب في الخمسينات ، وهذه هي مرحلتها الاولى ، حركة ثورية رومانسية غير واضحة الهدف ، وكانت تعتمد على العواطف والانفعالات وردود الفعل ، وتقوم على اساس الرغبة في الانتقام والثأر لمأساة من نوع « ثأر . حديد . دم . نار » ولم يكن معروفا لهذه الحركة اي بعد فكري غير هذا البعد الانفعالي العاطفي ، ولكن الحركة تطورت بعد ذلك وتخلصت من هذه الشعارات الانفعالية .ولعل نقطة التحول الرئيسية في تاريخ المرحلة الثانية لحركة القوميين العرب هي حادث الانفصال الذي تم سنة ١٩٦١ وخرجت به سوريا من الوحدة المصرية السورية . فقد وقفت حركة القوميين العرب ضد الانفصال بعنف وارتبطت بالتيار الناصري في السياسة العربية ارتباطا واضحا . على ان حركة القوميين

العرب قد تعرضت لتحول آخر يمثل مرحلتها الثالثة وقد ظهر هذا التحول بوضوح بعد عدوان ١٩٦٧ وان كانت مقدماته قد ظهرت قبل ذلك وهذا التحول قام على اساس دخول حركة القوميين العرب في مرحلتها الماركسية ، وانقسام الحركة الى عدة أجنحة ، وكان اهم هذه الاجنحة هو جناح « الجبهة الشعبية » الذي ينتمي اليه غسان كنفاني ، والذي اختاره موقعا سياسيا حتى حادث مقتله يوم ٨ يوليو « تموز » الماضي ، كما كان غسان هو المسئول الاعلامي في الجبهة الشعبية والمتحدث الرسمي باسمها ، وكانت مجلة « الهدف » التي يرأس تحريرها هي الناطقة باسم الجبهة ، وكان غسان من ناحية اخرى احد المسئولين عن الاتصالات الخارجية في الجبهة ، حيث كان يستفيد في هذا المجال من علاقاته الاوروبية الواسعة التي انشاها بنشاط وحيوية خلال اكثر من عشر سنوات ، وقد استطاع غسان من خلال علاقاته الاوروبية ان يقيم خيطا رفيعا من العلاقة بينه وبين عرب الارض المحتلة ، بحيث يتمكن من المعرفة الدقيقة لما يعانيه هؤلاء العرب من مشاكل داخل اسرائيل .

وتشير كل الدلائل الى ان اغتيال غسان قد تم بسبب اتصالاته الخارجية الواسعة ، حيث اتهمته بعض الصحف الاوروبية بانه المسئول عن حادث « مطار اللد » الذي هاجم فيه ثلاثة من الفدائيين اليابانيين هذا المطار الاسرائيلي وقتلوا في هجومهم عددا من الموجودين بالمطار ، اما الصحف الاسرائيلية فقد اتهمت غسان اتهامات صريحة في هذا الحادث ، وقد طالبت احدى الصحف المتطرفة في تل ابيب بقتل ثلاثة من قادة المقاومة الفلسطينية ، حددتهم باسمائهم وهم : ياسر عرفات وجورج حبش وغسان كنفاني . وكان غسان هو اقلهم احتياطا، ولم يتخذ لنفسه ابدا اي نوع من الحراسة ، ولم يلجأ الى اي تدابير وقائية مما سهل على اسرائيل تنفيذ خطتها في اغتيال غسان .

بقي الجانب الثالث في شخصية غسان ، بعد جانب الصحفي وجانب المناضل السياسي ، وهذا الجانب الثالث هو الذي اعطى لشخصية غسان قيمتهالكبيرة ونشر اسمه في شتى انحاءالوطن العربي، هذا الجانب هو الجانب الادبي حيث كان غسان اديبا موهوبا غزير الانتاج ، وكان شعوره بالمرض واقتراب الموت منه يشعل فيه رغبته في الانتاج الوفير لعله بذلك يعطي افضل ما لديه قبل فوات الاوان .وقد اصدر غسان منذ ظهوره في الحياة الادبية سنة ١٩٦١ الى الان اثنى عشر كتابا ، وذلك غير الكتب التي نشرها في الصحف والمجلات ولم يجمعها قبل موته في كتاب ، وهناك من ناحية اخرى ذلك الانتاج الوفير الذي كان يكتبه باسماء مستعارة من بينها فيما ذكر اسماء« فارس فارس » و « ربيع مطر » و «غسان كنج » .

وانتاج غسان كنفاني الادبي يتميز بانه من اوله الى آخره « ادب سياسي » ، اما الموضوع الرئيسي في كل ما كتبه غسان فهو «فلسطين» وذلك اذا استثنينا مسرحيته الوحيدة « الباب » ، وهي مسرحية رمزية فلسفية كتبها عن القصة الدينية المعروفة حول شداد بن عاد الذي بنى مدينة « ارم ذات العماد » ليتحدى بها الجنة فهدمها الله بعد ان تم بناؤها على احسن صورة .

ونستطيع ان نميز في انتاج غسان كنفاني بين « الدراسات الادبية » وبين « الانتاج الفني » الذي يشمل القصة والرواية والمسرحية . اما الدراسات الادبية فتتمثل في ثلاث دراسات اصدرها غسان كان اولها هو ادب المقاومة في فلسطين المحتلة » وكان هذا الكتاب بالذات هو اول اشارة الى وجود حركة ادبية واسعة في الارض المحتلة فقد كنا جميعا نظن لفترة طويلة ان اسرائيل استطاعت ان تخمد انفاس العرب الذين استمروا في الحياة داخل اسوارها بعد ١٩٤٨ ، وكنا نظن ان الارهاب الاسرائيلي استطاع ان يسكت كل نبضة في قلوب هؤلاء العرب وكل فكرة في عقولهم . ولكن كتاب غسان كنفاني استطاع ان يكشف للعالم العربي كله ، لاول مرة ، ان هناك حركة ادبية ثورية عنيفة وعنيدة في داخل الارض المحتلة ، وقدم غسان في دراسته نماذج من شعر محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد وغيرهم . واستطاع غسان ان يكون اول من يحصل على النماذج الشعرية في الوطن العربي من خلال اتصاله بالعرب المقيمين في الارض المحتلة عن طريق زوجته « آني » وعن طريق اتصالاته الاوروبية الواسعة واذكر ان اول ديوان قرأته لمحمود درويش وهو « عاشق من فلسطين » لمحمود درويش كان نسخة وجدتها مع غسان كنفاني سنة ١٩٦٧ ، وكانت مطبوعة في اسرائيل، وما زالت نسخة هذا الديوان الىاليوم فيمكتبتي، تذكرني على الدوام بيوم اكتشافي للشعر العربي الثائر النابض بالحياة والاعتراض والرفض في اسرائيل ، وهذه النسخة تذكرني من ناحية اخرى بغسان ، وبانتباهه المبكر الى حركة شعر المقاومة داخل الارض المحتلة ، وتذكرني ايضا بليلة من ليالي لقائي مع غسان ، حيث اصبحت هذه الليالي منذ اليوم الاول ذكرى عزيزة تحتضن في القلب اسم هذا الفنان الشهيد .

والدراسة الثانية التي قدمها غسان كنفاني هي « الادب الفلسطيني المقاوم من ١٩٤٨ الى ١٩٦٨ » وهذا الكتاب هو امتداد للدراسة السابقة وتعميق لها . والاضافة الجديدة الرئيسية في هذا الكتاب هي ما قدمه غسان من نماذج للقصة والمسرحية العربية داخل اسرائيل ، وبذلك كشف غسان عن ابعاد اخرى للحركة الادبية العربية في اسرائيل والتي لم تتوقف عند حدود الشعر بل امتدت ، وشملت اشكالا اخرى من التعبير الادبي . والدراسة الثالثة التي قدمها غسان هي دراسته عن « الادب الصهيوني » وهي اول دراسة في المكتبة العربية عن ادب اسرائيل وجذوره في الادب اليهودي السابق على قيام اسرائيل . وهكذا قدم غسان الادب العربي الثوري في اسرائيل وقدم الوجه الاخر للعملة وهو الادب الصهيوني الذي يعبر عن النزعة العدوانية الكامنة في الشخصية الاسرائيلية ويكشف عن هذه النزعة. وكانت دراسات غسان كلها تعتمد اعتمادا اساسيا على التفسير السياسي للادب العربي الثوري والادب الصهيوني على السواء . وهكذا كان غسان رائدا حقيقيا في ميدان دراساته الادبية . وهو اذا كان قد فاته في هذه الدراسات ان يهتم بالقيم الفنية للاداب العربية والصهيونية التي يدرسها ، فلم يفته ابدا ان يبرز ما في هذه الاداب من معان ورموز سياسية عميقة ، وكان الفهم السياسي اهتمامه قبل اي شيء اخر .

اما الجانب الثاني من انتاج غسان فهو الجانب الفني ، وهو الجانب الذي سوف يبقى اكثر من اي جانب اخر لغسان في تاريخنا الادبي المعاصر . وهو الجانب الذي اعطى لغسان قيمته الكبرى،واعطى لموته معنى ومغزى ، خاصة وان ادبه كان صورة من حياته ، فقد كان دائما يرسم واقع المأساة الفلسطينية ويشير الى الحل وهو المقاومة والاستبسال في المطالبة بالحق الضائع حتى الاستشهاد . وقد اصدر غسان ـ فيما اعلم ـ خمس مجموعات قصصية هي « موت سرير رقم ١٢» ١٩٦١ ، و« ارض البرتقال الحزين » ١٩٦٢ ، و(عالم ليس لنا) ١٩٦٥ و« عن الرجال والبنادق » ١٩٦٨ و (ام سعد) ١٩٦٩ . وقصصه القصيرة كلها تدور حول فلسطين والتجربة الفلسطينية . وتتميز قصصه بالتركيز والشاعرية والاهتمام بالتصوير النفسي العميق للشخصيات ، كما تتميزهذه القصص بانها تستمد معظم احداثها الرئيسية من الواقع الفلسطيني ، بل احيانا تعتمد هذه القصص على خبر منشور في الصحف او حادثة عاشها غسان او رواها له احد فهو يكتب قصته « موت سرير رقم ١٢ » مستمدا هذه القصة من واقعة حقيقية يذكرها في مقدمة مجموعته المعنونة بهذا الاسم فيقول « لا بد ايضا ، ولو بدا ذلك غريبا بعض الشيء ان ارسل عزائي الى العائلة المجهولة التي فجعت بموت ابنها « محمد علي اكبر » الذي مات بعيدا ، وحيدا ، غريبا ، على السرير رقم ١٢، وهو ينزف عرقا

نبيلا في سبيل لقمة شريفة ..»

وفي قصته القصيرة « لا شيء » يستوحي القصة كلها من خبر صحفي يقول « ان جنديا عربيا على الحدود صب فجاة رصاص رشاشته على الارض المحتلة فاقتيد الى مستشفى الامراض العصبية » .. وهذا الاسلوب الذي يربط فيه غسان بين قصصه المختلفة وبين الواقع الفلسطيني كثيرا ما جعل من قصصه لوحات انسانية اكثر منها قصصا بالمعنى الفني المعروف . ولكن هذه اللوحات لم تفقد جمالها وتاثيرها وقدرتها على النفاذ الى القلب لانها تصدر عن وجدان يعيش المأساة الفلسطينية بكل تفاصيلها الدقيقة العميقة رغم ما كانت هذه القصص تحمله من طابع المنشور الثوري والمقالة الصحفية السياسية.

وقد نشر غسان ثلاث روايات هي « رجال في الشمس » ١٩٦٣ و « ما تبقى لكم » ١٩٦٦ و(عائد الى حيفا) حوالي سنة ١٩٧٠ (حيث لم يذكر تاريخ النشر على غلاف الرواية) ... ويرى غسان نفسه ان احسن ما كتب هما روايتاه : « رجال في الشمس » وما تبقى لكم ». والحقيقة انهما بالفعل روايتان ممتازتان ، لا في ادب غسان وحده، ولكن في ادب الرواية العربية المعاصرة كله ، لقد استطاع غسان في هاتين الروايتين ان يكشف عن اعمق مواهبه الفنية واكثرها خصوبة وتعقيدا . وهما روايتان قصيرتان تعتمدان على التركيز الشديد والشاعرية الخصبة ، وتصور الاولى محنة الفلسطيني الذي ترك ارضه ليبحث في بلاد الله عن عمل ومنفى يؤويه ، فوجد الخديعة في المنفى كما وجدها من قبل فوق ارض بلاده .وقد قام المخرج السينمائي المعروف توفيق صالح باخراج هذه القصة في فيلم سوري اسماه « المخدوعون » ولكن هذا الفيلم لم يظهر على الشاشة حتى الان . اما الرواية الثانية « ما تبقى لكم » فهي تصور المحنة النفسية العميقة للفلسطيني وتكشف عن ضرورة الخلاص من هذه المحنة بالسلاح ، بالعنف ، بالمقاومة . وهذه الرواية اشبه بقصيدة طويلة رائعة عن النفس الفلسطينية وجراحها الكثيرة . اما الرواية الثالثة « عائد الى حيفا » فهي اقل من الناحية الفنية بالنسبة للروايتين السابقتين ولكنها تصور ايضا صفحة عميقة من صفحات النفس الفلسطينية في محنة الهجرة والغربة والحنين الى العودة .

اما المسرحية الوحيدة التي كتبها غسان فهي مسرحية « الباب »، والمسرحية تناقش المصير الانساني بين التمرد والاستسلام وتدعو الانسان الى ان يحمل مصيره على كتفيه ويناضل من اجل هذا المصير مهما كانت النتائج .

هذه هي قصة غسان كنفاني في الفن والحياة ، وهي قصة شاب موهوب ، حاد الذكاء ، مشتعل الاعصاب ، ربط مصيره الشخصي بمصير بلاده ، واستغل مواهبه كلها من اجل التعبير عن قضية وطنه وشعبه ، ورفض العمل السهل والرفاهية والنجاح والعزلة ، واختار باستمرار ان يكون في قلب المعركة ، وكان يشعر على الدوام بانه معرض للموت في اي لحظة بسبب مرض السكر الذي داهمه منذ صباه الاول ، مما جعل منه شعلة لا تهدأ ولا تكف عن العمل والانتاج والنضال ... ولا شك ان غسان قد تبنى في حياته بعض المواقف الخاطئة ، وتحمس لبعض الاراء الخاطئة ،وخاصة لانه دخل معركة التنظيمات السياسية المضطربة بما يدور فيها من تمزقات ومشاكل، ولكن غسان ارتفع بمواهبه الفنية واخلاصه لقضيته فوق جميع الاخطاء الجزئية الصغيرة ، وكم هناك من الرجال الذين لم يخطئوا ولم تتلوث ايديهم باي غبار ، ولكنهم ظلوا على الدوام بعيدين عن محنة بلادهم وعن قلبها وعن عواطفها ، انهم رجال جوف ، مليئون بالقش، يعيشون على الهامش ، لا جدوى منهم ولا معنى لهم ، اما غسان فقد آثر ان يخوض معركة العمل الفعلي اليومي ، حتى ولو وقع في بعض الاخطاء .. ومن يعمل ولا يخطىء ؟.. وقد اصبح الباقي لنا من غسان شيء اكبر من اخطائه ومواقفه الجزئية ، هذا الذي بقي لنا منه هو ادبه الثوري الذي يعيش في قلوبنا لانه ادب جميل صادر عن موهبة حقيقية ، ولانه ادب قضية كبيرة كانت تسكن في اعمق نقطة من قلب غسان وليس ادب ترف ورفاهية واستعراض ذاتي ولعب بالكلمات.

ويكفي غسان كنفاني اخيرا انه اول اديب عربي لامع يموت في ميدان المعركة العربية الكبيرة منذ سنة ١٩٤٨ الى اليوم ، لقد مات الشاعر العربي الكبير عبدالرحيم محمود وهو يقاتل في معركة « الشجرة » في فلسطين ١٩٤٨ .. وكان عبدالرحيم محمود وساما على صدر « جيل ٣٦ – ٤٨ » ، اما جيلنا من ١٩٤٨ الى اليوم فقد ظل يعيش بلا وسام حتى كان استشهاد غسان ، فنلنا وساما على صدرنا يجب ان نسعى دائما لكي نكون على مستواه .

وداعا يا غسان . لقد رفعت مهنة القلم .. تلك المهنة التي تعودت ان تصغر وتكبر على حسب الذين يمارسونها ، ولقد كبرت بك مهنة القلم ، حيث كان القلم في يدك شجاعة ورسالة وشرفا وعرضا وكرامة ورفضا للامن الشخصي في شعب ممزق ومجروح ولا يعرف الامان .

اما « تحية سفارة اسرائيل في كوبنهاجن » التي انتزعتك منا يا غسان بقنبلة وخمسة كيلوجرامات من الديناميت فقد ايقظت فينا مزيدا من الايمان بان معركتنا مع هؤلاء الاعداء ليست لعبة سياسية ولا لعبة عسكرية .. ولكنها صراع لا رحمة فيه بين الخير والشر ، بين الجمال والقبح ... ولا نجاة لنا الا بان نرد تحية اسرائيل باحسن منها وابقى منها ..

.. اننا ندافع عن فتانا النبيل غسان كنفاني اما هم فانهم يقومون باغتيال هذا الجمال .. ويدافعون عن هذا الاغتيال ، ويدبرون خططا جديدة كل يوم لكي يغتالوا احد الشهداء او قطعة من الارض ليست لهم ، او شجرة زيتون او برتقال لفلاح عربي بسيط .

لا احد يستحق الجائزة !

ظهر منذ فترة اخر نتائج جوائز الدولة في مصر ، وهي جوائز سنوية لتشجيع الادب والثقافة والعلم . وقد كان هناك هذا العام جائزة مخصصة للشعر ، ولكن اللجنة التي اجتمعت لاختيار الفائز بالجائزة رات انه لا يوجد بين المتقدمين ولا يوجد في مصر عموما شاعر صالح للجائزة . والذي اثار الراي العام الادبي في مصر ضد هذا القرار انه كان من بين المتقدمين للجائزة شاعر جديد بارز هو « امل دنقل » .

ولقد رفضت لجنة الجائزة هذا الشاعر من بين من رفضتهم من الشعراء الاخرين ، واعتبرته مثل بقية الشعراء المتقدمين شاعرا غير جدير بالجائزة . ولذلك قررت اللجنة ان تحجب الجائزة هذا العام حتى يظهر في مصر شاعر يرضى عنه اعضاء اللجنة ويرون فيه موهبة تستحق التشجيع والتكريم .

وهذا القرار يثبت مرة اخرى ان اللجان ، التي تنعقد من اجل الحكم على حياتنا الثقافية ما زالت متخلفة الى ابعد الحدود عن هذه الحياة . فمن الواضح لكل من يتابع حركة الشعر العربي الحديث في مصر وخارج مصر ان « امل دنقل » يمثل صوتا جديدا من الاصوات الرائعة الموهوبة في الشعر العربي المعاصر . وقد احتل امل دنقل بعد ١٩٦٧ بالذات مكانا مرموقا في صفوف الجيل الجديد من الشعراء العرب . واستطاع امل دنقل ان يصل الى هذه المكانة الكبيرة لعدة اسباب ، فهو اولا شاعر لا يكرر غيره من الشعراء وليس صدى لاحد بل هو صوت جديد مستقل في عالمه الشعري ، وليس معنى هذا انه لم يتاثر بغيره من الشعراء البارزين في الحركة الشعرية الجديدة ، فالحقيقة انه تاثر بهؤلاء الشعراء واستفاد منهم ولكنه في اخر الامر استطاع ان يشق لنفسه طريقا جديدا ، وان يرسم لشخصيته صورة خاصة به وحده ، وان تتردد انغامه وصوره الشعرية في الاذن والقلب دون ان تختلط بغيرها من الانغام والصور ، وهذا الاستقلال الشعري يمثل عنصرا هاما من عناصر التاثير الفني ، ذلك لان النسخ المكررة في الفن ، او النسخ الباهتة الخالية من الملامح الخاصة لا يمكن ان تخلق دائرة ملموسة من دوائر التاثير او الحساسية . وامل دنقل يتمتع بهذا الاستقلال الفني الواضح وبهذه الصورة الحادة ذات الملامح التي لا يمكن لنا ان ننساها او نخلطها بغيرها او نمر بها عابرين.

وامل دنقل من ناحية اخرى شاعر ربط شبابه وفتوته الفنية بواقع النفس العربية منذ النكسة في ٥ يونيو « حزيران » الى اليوم،

فهو شاعر لم يخن ضميره ابدا ولم يفرط في بكارته ، ولم يجنح الى الهروب نحو المخابىء والسراديب الذاتية ليحتمي بنفسه من لهيب الواقع الذي يعيش فيه وطنه واهله ، لقد عاش بشعره الخصب في وضح النهار ، وعاش في شمس الظهيرة المحرقة .. وبعيدا عن كل هذه الصور والتشبيهات نستطيع ان نقول ان امل دنقل يعبر عن الواقع العربي منذ النكسة بصدق وامانة ، وقد اختار لنفسه موقفا شجاعا وشائكا ، ولم يتردد في هذا الموقف ، فلم يكن امل دنقل من النادبين الذين لا يرون في الامة العربية الا جثة هامدة ترويها الدموع والصرخات على قبرها الذي حفرته لنفسها بعد ٥ يونيو ، ولم يكن امل دنقل من بين الهاتفين الذين يحاربون بسيف عنترة العبسي وخالد بن الوليد وعبدالمنعم رياض ، وعندما نقرا اشعارهم لا نستطيع ان نجد عندهم حتى ولا سيف دون كيشوت الخشبي .. حتى ولا معاركه الوهمية . اما الموقف الذي اختاره امل فهو موقف نقدي يلتقط السلبيات والاخطاء برؤية فكرية عالية وصحيحة وغير مفتعلة ولا مرتبكة ، فعندما نقرا قصائد امل دنقل لا نملك الا ان نقول : هذا جميل وحقيقي .. هذا جميل وصائب ... هذا فن رائع وفكر صحيح. فالصورة التي يرسمها امل دنقل تكشف عن وعي فكري عميق ،وتكشف عن ضمير يقظ لا يهاب ، وتكشف بعد ذلك عن موهبة فنية تستطيع ان تصوغ هذا كله في فن جديد قادر على الوصول الى اعماق الوجدان والعقل . والسبب الثالث الذي ساعد امل دنقل على ان يحتل مكانه كشاعر جديد بارز هو انه لم يتوقف عند حدود النقد والسخط والرفض ، فشعره بعيد تماما عن القتامة والتجهم والنظرة العدمية اليائسة ، فهو شاعر قادر على ان يبصر اشعة النور هنا اوهناك او يتجاوب معها ويعكسها في شعره ، والآمال التي يتحمس لها امل دنقل ليست اوهاما مفتعلة ، وانما هي حقائق تظهر في واقعنا العربي بين الحين والحين فيتمسك بها الشاعر ويتفاعل معها ويعبر عنها بفنه الشعري الناضج اعمق التعبير . ويكفي ان اشير الى قصيدته اللامعة « الكعكة الحجرية » والتي يكشف فيها عن الامل المشرق الذي يولد مع شبابنا الجديد ، هذا الشباب الذي يتفجر بالثورة والرغبة في العمل من اجل تحرير الوطن والانسان .وما اكثر قصائد امل دنقل الاخرى التي تعبر عن الميلاد الجديد للانسان في بلادنا ، هذا الميلاد الصعب القاسي ، الذي يتم بين الاشواك وفوق فراش من الديناميت وفي قلب الازمات والمخاطر ، والعواصف والرياح .

هذه بعض ملامح الشاعر الجديد امل دنقل ، وبالطبع فتلك كلها خطوط سريعة تحتاج الى دراسة شاملة لم اقصد اليها هنا، وانما اردت فقط ان اشير الى مشكلة هذا الشاعر الموهوب الذي يتردد اسمه الان في كل مكان فيه للشعر الحقيقي قيمة وكرامة، والذي رفضت لجنة من شعراء مصر ان تمنحه الجائزة ،في الوقت الذي تحتضن فيه ايد كثيرة وقلوب كثيرة قصائد هذا الشاعر الشاب بحب وحنان .

وليس لنا على كل حال ان نغضب كثيرا او نتالم اذا كان من بين الذين رفضوا ان يمنحوا امل دنقل الجائزة شعراء من امثال : العوضي الوكيل ومحمود غنيم ، كما انه ليس من الغريب ان يكون امل دنقل مرفوضا من مقرر اللجنة وهو الشاعر عزيز اباظة .. ولكن من حقنا ان نتالم قليلا اذا علمنا ان من بين اعضاء اللجنة التي حجبت الجائزة اسمين عزيزين هما : صلاح عبدالصبور ومحمود حسن اسماعيل .

نجيب محفوظ والضابط الاسرائيلي

فوجىء العرب في الارض المحتلة بخطاب القاه احد الضباط الاسرائيليين الكبار هو « منتياهو بيليد » ، وكانت المفاجاة في هذا الخطاب ان الضابط الاسرائيلي يقول : انني درست ادبكم العربي الحديث جيدا ، وقد نلت الدكتوراه في الادب برسالة قمت بتحضيرها في اميركا عن اديبكم العربي الكبير نجيب محفوظ .

والحقيقة ان الضابط الاسرائيلي لم يكن يكذب ، فقد قام بالفعل بدراسة ادب نجيب محفوظ ، ونال الدكتوراه بهذه الدراسة من احدى جامعات اميركا ، وارسل ــ من امريكا ــ نسخة من بحثه الى نجيب محفوظ .

وهذه الحادثة تكشف لنا ــ ربما للمرة الاولى ــ عن العقلية التي يعالج بها الاسرائيليون مشكلتهم مع العرب . انهم يرفضون تجاهل الشخصية العربية ، ويعملون بكل جهدهم على دراسة هذه الشخصية وعلى فهمها . وهم حين يدرسون الشخصية العربية لا يقفون عند الحدود الشكلية الخارجية لهذه الشخصية ، بل يهتمون باعماق هذه الشخصية ، هذه الاعماق التي تبدو بوضوح في الادب والفكر والثقافة ، والحقيقة انه لا يمكن ان نفهم امة من الامم فهما صحيحا دون ان نفهم ادبها بعمق وشمول واحاطة ، والاسرائيليون يدركون هذا الامر ، فهم يريدون البقاء في هذه المنطقة من العالم ، وهم يعلمون ان « معاشرتهم العدائية » للعرب سوف تطول وتطول ، ومن المستحيل ان « تحارب » عدوا تجهله ، فالجهل يجعل هذا العدو مخيفا، والجهل يجعل جميع الخطط في مواجهة هذا العدو خططا عشوائية مرتجلة ، اما المعرفة الدقيقة بالعدو فهي سلاح من اسلحة الحرب ضده ، والهجوم عليه .

وقصة الضابط الاسرائيلي « منتياهوبيليد » مع ادب نجيب محفوظ لها مغزى اخر ، فالعسكريون الاسرائيليون يحاولون ان يضعوا اساسا مدنيا عميقا لثقافتهم ، فالمفروض انهم يمثلون قضية .. هم يرونها قضية عادلة ونحن نراها غير عادلة ... ومن وجهة نظرهم ،فانهم يعتبرون انفسهم عسكريين ذوي رسالة اعم واشمل من الوسائل العسكرية فقط . انهم ليسوا مجموعة من « الانكشارية » او العسكر المحترفين الماجورين للحرب ، ولكنهم يتصورون انهم اصحاب رسالة حضارية واسعة في هذه المنطقة من العالم . وهذه القضايا كلها يجب ان ننتبه اليها ، بل ويجب ان نتعلم منها . ومن البديهي ان يكون البادىء بالعدوان اكثر تخطيطا لنفسه من المعتدى عليه . ولكن هل هذه البديهية تكفي لتفسير التنبه المستمر واليقظة الدائمة عندالاسرائيليين والغفلة وعدم الاهتمام في العقل العربي ؟! .. لقد تطور الصراع العربي الاسرائيلي الان واصبح صراعا حادا وعنيفا وشاملا لكل شيء .. ولم يعد امامنا اي عذر لان نفهم عدونا فهما سريعا مرتجلا مبنيا على التجاهل والاهمال والاحساس بانه عدو عارض لا قيمة له . والذي يمكن ان نتعلمه من قصة الضابط الاسرائيلي الكبير ودراسته لنجيب محفوظ هو ضرورة الاهتمام على نطاق واسع بالادب الاسرائيلي والثقافة الاسرائيلية عموما . وهو الامر الذي نقف فيه متخلفين الى ابعد الحدود . والمسالة الثانية التي نتعلمها من قصة الضابط الاسرائيلي هي ان العسكرية العربية يجب ان تتسلح بثقافة مدنية واسعة حتى يرتفع ادراكها للقضية التي تدافع عنها الى اعلى مستويات العمق والشمول والمعرفة . على انني احب ان اشير اخيرا الى ان الضابط الاسرائيلي « منتياهو بيليد » لم يدرس نجيب محفوظ دراسة سطحية سريعة ،بل قامت دراسته على اساس عميق وجديد من التفكير والبحث ، وقد اتيح لي ان اطلع على هذه الدراسة من خلال النسخة التي ارسلها صاحبها من امريكا الى نجيب محفوظ ... هذه الدراسة ليست عملا سطحيا سريعا بل هي دراسة عميقة تقدم وجهة نظر جديدة في ادب نجيب محفوظ ، فالباحث الاسرائيلي يحاول ان يثبت ان نجيب محفوظ هو « كتاب اسلامي يهتم بالقيم الروحية » ... وهي وجهة نظر جديدة وغريبة وقابلة للمناقشة ... على ان الباحث الاسرائيلي يحاول ان يبرهن على وجهة نظره بعمق وبلا تسرع او ارتجال .

والمهم هنا هو ان مثل هذا العسكري الاسرائيلي لا يدرس نجيب محفوظ بهدف الدراسة المجردة السريعة ، ولكنه يريد ان يثبت شيئا جديدا ، ويريد ان يفهم المجتمع العربي المصري من خلال هذا الاديب الكبير .

ان موقف الضابط الاسرائيلي فيه كثير مما يجب ان نفهمه وننتبه اليه ... فالعدو الذي امامنا ليس ساذجا ولكنه اذكى واخطر مما كنا نتصور خلال ربع قرن مضى من الزمان .. منذ ١٩٤٨ الى اليوم .

القاهرة

رجاء النقاش